(مبشرات النصر)

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ ، وَنَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُور أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وعد بالنصر عباده المؤمنين فقال : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) ووعد بالهداية عباده المجاهدين فقال : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) ونشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله القائل : (بَدَأَ الإِسلاَمُ غَرِيبًا ثم يعودُ غريبًا كَمَا بَدَأَ فطوبَى لِلْغُرَبَاءِ) قيل يا رسولَ اللهِ ومن الْغُرَبَاءُ ؟ قال : (الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَاسُ) اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين! أما بعد فيقول ربنا فى بداية سورة العنكبوت :

(الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)

• أيها المسلمون : لقد عانى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون معه فى حياتهم منذ بدء الدعوة إلى الله! وكان القرآن الكريم ينزل مواسيا لهم تارة كقول الله تعالى لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) ومبشرا لهم تارة أخرى عندما كانوا محاصرين فى شعب أبى طالب قال تعالى : (الم * غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

• ونتساءل : مالحكمة فى نزول هذه الآيات وهم محاصرون ؟ يريد الله أن يدرب عباده منذ اللحظة الأولى على التضحية والحرمان وليقول لهم : هكذا ستكونون فى كل عصر محاصرين إقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وهذه حقيقة! فالناظر فى أحوال المسلمين اليوم على خريطة العالم يراهم يعانون معاناة متفاوتة مابين الإضهاد الذى يصل إلى الإبادة الجماعية أو التضييق عليهم فى ممارسة العبادة فتعيش الأقليات المسلمة اليوم فى أماكن كثيرة من العالم أوضاعا سيئة على جميع المستويات فضلا عن كل أنواع الحرمان كالقتل والحصار والتجويع والإقصاء! حتى الدول العربية أصبح المؤمنون يعيشون هذه المأساة! فالعداء لكل ماهو إسلامي اليوم! فهل هذا يدعو إلى التشاؤم ؟ الإجابة فى قول الله تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

• فالأمة الإسلامية اليوم فى حاجة أن تتذكر حياة الأولين من المهاجرين والأنصار لأنهم الأسوة والقدوة ! فقد تحملوا الكثير من الأذى والصبر حتى نشروا هذا الدين! فحياتنا اليوم تشبه حياة المسلمين الأولين غير أن الفارق الذى بيننا وبينهم أننا متشائمون وهم ليسوا كذلك! ولعل ذلك يرجع إلى الضربات المتلاحقة التي توجه بخبث ومكر من أعداء الإسلام إلى الدين وأهله! يريدون إطفاء نور الإسلام وهذا مستحيل! نقول : مستحيل لماذا ؟ لأنه لن يستطيع أحد أن يطفئ ضوء الشمس بنفخة من فمه! فإذا كان ضوء الشمس لايطفأ بنفخة من فم الإنسان! فكذلك نور الله الذي ملأ السماوات والأرض لن يطفئه كيد أعداء الله! لأن الله وعد بتمام ذلك النور فقال تعالى : (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) .

• فيشيع فى كثير منا تصور مغلوط أو مخيف عن مستقبل هذه الأمة حيث نرسمه في أذهاننا أسودا حالكا ونرى طريقه ضيقاً مغلقاً بينما لو أمعنا النظر في المفهوم القرآني لمسار التاريخ وأحداثه عموماً نجده مفهوماً متفائلاً مبشراً واعداً مهما اشتدت المحن وساءت الظنون! ونحن مأمورون شرعاً أن نبشر ولا ننفر وأن نيسر ولا نعسر لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (بَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا ويَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا) ومن أمثلة ذلك : لقد بشر القرآن الكريم المسلمين وهم أضعف مايكونون بالتمكين فى الأرض والنصر على أعدائهم فتحقق وعد الله فى حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! وفى حياة أصحابه رضي الله عنهم عندما انطلقوا فى كل مكان ينشرون هذا الدين! ففتحوا الشام ومصر والأندلس وغيرها ، ثم تأسّى بالصحابة واقتدى بهم التابعون والمجاهدون والعلماء فى كل عصر فارتفعت راية الإسلام عالية خفاقة على ممالك كسرى وقيصر ، وآسيا وأفريقيا ، والهند ، والصين ، والشرق والغرب! ودخل الناس فى دين الله أفواجا! ومازالوا يدخلون بفضل جهودهم وتضحياتهم العظيمة فرضي الله عنهم أجمعين! .

- فمبشرات النصر والتمكين لهذه الأمة كثيرة من القرآن الكريم ، ومن السنة النبوية ، ومن التاريخ ، ومن الواقع :

أولا : بشائر النصر من القرآن الكريم :

يقول الله تعالى من سورة النور : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)
فهذا وعد دائم ومستمر إلى قيام الساعة إن شاء الله ، فلقد جاء الإسلام إلى هذه البلاد! وفى الشرق والغرب من الأرض!

ثانيا : بشائر النصر من السنة النبوية :

- نشر الإسلام في عموم الأرض لقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا) ويقول : (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ! بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ! عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاً يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ) .

ثالثا : بقاء الطائفة المؤمنة منصورة إلى يوم القيامة :

- قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ) قالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ قَالَ : (بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ) وَفِي روية : (وَهُمْ بِالشَّامِ) .

رابعا : بشائر النصر من التاريخ :

1- في الحروب الصليبية : لقد زحفت أوروبا بكل رجالها ونسائها ومدنييها وعسكرييها إلى بلاد المشرق المسلم فاحتلوها! وبقي الصليبيون في بلاد الشام مائتي عام! وبقي بيت المقدس في أيديهم تسعين سنة كاملة حتى مات الأمل وانقطع الرجاء من نفوس المسلمين ، ثم هيأ الله للأمة رجالاً أمثال : عماد الدين زنكي وابنه نور الدين زنكي والقائد صلاح الدين الأيوبي فأزال الله بهم الغمة ، وأتم للأمة الفضل والنعمة .

2- في حروب التتار : فالتتار : دولة نشأت فى منغوليا بشمال الصين ، وكان أول زعمائهم هو : جنكيزخان قدموا من الشرق كالريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم! فاحتلوا بلاد المسلمين وأفسدوا فى الأرض : قتلوا البشر وهدموا المدن! فاستسلم الناس للموت أفواجاً! ولكن لم تمض سنوات حتى انتصر الإسلام عليهم مرتين : إنتصر عليهم عسكرياً فانهزموا في معركة عين جالوت! وقد انتصر عليهم مرة أخرى حينما دخلوا فى الإسلام! وصاروا دعاة له وعنه مدافعين! فاستبشروا معشر المسلمين بنصر ربكم فنصر الله قريب إن شاء الله! .

- فمع كل كيد للإسلام وللرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترى الله لهم بالمرصاد فيقول الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه : (الدرر الكامنة) كان النصارى ينشرون دعاتهم بين المغول طمعاً في تنصيرهم وقد مهد لهم القائد هولاكو سبيل الدعوة بسبب زوجته المسيحية وفي يوم توجه جماعة من كبار النصارى لحضور حفل كبير لتنصر أحد أمراء المغول! حضر الحفل أكثر من أربعين ألف مغولي ، فأخذ أحد دعاة النصارى في سبّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان بجانب الحفل كلب صيد مربوط! فلما بدأ النصراني في سب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هاج الكلب واستطاع أن يتخلص من قيده ثم وثب على الصليبي وخدشه بشدة فخلصوه منه بعد عناء! فقال له بعض الحاضرين : لقد حدث لك ذلك بسبب كلامك عن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! فقال الصليبي كلا لقد ظن الكلب بأنى سأضربه عندما أشرت إلى جهته بيدى! ثم عاد لسب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!عندها وثب الكلب على عنق الصليبي فقلعه فمات من فوره فعندها أسلم جميع من فى الحفل وهم أكثر من أربعين ألفاً من المغول .

3- وفى العصر الحديث ترى أمثلة كثيرة فصراع الإسلام مع الشيوعية في الإتحاد السوفيتي السابق معروف للجميع فقد سعت الشيوعية بكل ما أوتيت من قوة أن تكون البديل للإسلام ولكن الذي حدث هو العكس : إنهيار كامل للشيوعية وظهور قوي للإسلام في بلاد الشيوعية! فالإسلام ينمو وينتشر عندما يُؤذى ويُساء إليه! لأن الشدائد والمحن هى التى تفجر طاقة الأمم! والقارئ لتاريخ المسلمين يرى أن الأمة الإسلامية كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء لاتهزها الرياح ولاتقتلعها العواصف! كلما قُطِعَ منها غصن قويت واشتدت وأخرجت أغصانا! فالأمة الإسلامية حالياً أمة متعثرة وليست ميتة! قد تنام أو تمرض أو تتراجع لكنها لن تموت ما دام يجري في عروق أبنائها دم العقيدة الصافية إن شاء الله! فهذا الكيد الذي تزول منه الجبال سيتلاشى إن أطعنا ربنا وصبرنا على قضائه وقدره كما قال تعالى : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) .

• فإلى اليائسين من نصر قريب لهذه الأمة نقول لهم : لو تدبرنا كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لوجدنا فيهما المخرج ! ففى هذا القرن تجمع تحالف دولي لإسقاط دول إسلامية فهل سقطت ؟ كلا بل سقط المعتدون ورجعوا خائبين! فغاية مكرهم : إعتقالهم لبعض المسلمين بغير ذنب كما قال تعالى : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) فهل انتهى الإسلام ؟ كلا بل ارتفعت رايته ودخل الكثير منهم فى الإسلام لذلك قيل : وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُويَتْ * أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ & لولا اشْتِعالُ النار فيما جاوَرَتْ * ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرفِ العود فكيدهم للمسلمين لن يقف بشهادة ربنا قال تعالى : (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور) فالله للظالمين بالمرصاد فقد تحققت أسماء الله كلها في الدنيا إلا اسم الله العدل فهو محقَّق جزئياً لماذا ؟ لأن الله لو أجراه ما ترك على ظهر الأرض من دابة! فما نراه يوميا من صور للظلم تجعلك تقول أين الله لينتقم من هؤلاء الظالمين ؟ نقول نحن في دار ابتلاء وليس فى دار الجزاء! ففى دارالجزاء سيرى المظلوم عدل الله! سيرى الذين طغوا وبغوا عندئذٍ سيقول : لا إله إلا أنت سبحانك! هذا هو القصاص! .

• فإذا أردنا نصر الله فعلينا بتقوى الله والصبر فالطاعة والصبر هما سبيل النصر إن شاء الله! فالمسلمون اليوم في أمسّ الحاجة إلى التوحيد الذى يملأ قلوبنا ثقة بالله وتفاؤلاً! فالله لن يتخلى عنا إن توكلنا عليه واتقيناه وكيف يتخلى عنا ولم يتخل عن الصحابة عندما عصوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى غزوة أحد قال تعالى : (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فالله عز وجل يخرج لهذه الأمة في كل مرحلة من تاريخها علماء ودعاة وقادة ومجاهدين يستعملهم في خدمة هذا الدين! فكم دفن الناس من طاغية ؟ كم دفنوا من جبار محارب لله ورسوله ؟ كم دفن الناس من منافق وملحد ؟ النمرود مضى! فرعون مضى! قارون مضى! أبرهة مضى! أبوجهل مضى! جنكيز خان مضى! هولاكو مضى! ورؤساء الظلم والإستكبار في هذا الزمان سوف يأتي يوم ويدفنهم أهلوهم! فصبر جميل واستعانة بالله! فالله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون! .

فمبشرات النصر بدأت ونعيش فيها الآن ! فمن مبشرات النصر :

أولا : إستكبار الظالمين حتى بلغوا الغاية في الإجرام وفرحهم بذلك والله يقول : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ثانيا : شدة البلاء على أهل الإيمان حتى زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر! ودب اليأس في قلوب البعض منهم وظنوا بالله الظنونا! فهذه بشارات على قرب الفرج إن شاء الله قال تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

ثالثا : فمن علامات النصر : أن يميز الله الخبيث من الطيب! وقد تمايزت الصفوف فقالوا : نحن شعب وأنتم شعب! فهذا التمايز بين الفريقين دليل أكيد على قرب انتصار الحق إن شاء الله! فعلينا بكثرة الدعاء وإعداد العُدَّة! أما أن ندعو ولا نعد العُدَّة فليس بشيء فالدعاء وحده بدون إعداد العدة إستهزاء بالله فالدعاء يلزمه عمل! ألق حبة في الأرض ثم توكل على الله! فالنصر له ثمن والثمن ليس سهلاً وليس مستحيلاً!ولن يطالبنا الله بالعدة المتكافئة بل يطالبنا بالعدة المتاحة قال تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَاسْتَطَعْتُمْ) أنا حينما أعد العدة المتاحة يتكفل الله لي بالنصر! فعدم استقامة المسلمين على أمر الله لايستحقون النصر ولوبلغ دعاؤهم عنان السماء! .

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال :

(كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)